

## ١٨ - المصريون المحدثون

شمالهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي اوررد وليم لين

الأستاذ عدلى طاهر نور

— — —

تابع الفصل السادس - الحياة المنزلية

جرت المادة أن ينصرف التاجر بعد تناول العطور مباشرة إلى حانوته أو مغزته ولا يعود إلى المنزل قبل الأصيل<sup>(١)</sup>. ولديه هناك الفراغ الكافي للتدخين متى شاء، وكثيراً ما يدخن حرقاًؤه معه، فيقدم إلى بعضهم شبكة الخصاص، والقهوة يستحضرها من أقرب مقهى. وقد يمضي أغلب يومه في التكلّم مع الحرفاء أو مع جيرانه من التجار. والتاجر يقيم صلاته على العموم في دكانه، ويتناول بعد صلاة الظهر طعاماً خفيفاً مثل طبق من كباب ورغيف من الخبز يحضرها إليه خادم سفير من المنزل أو من الحوق يومياً، أو بعض الخبز مع الجبن أو الخللات، أو غير ذلك مما يشتره من الباعة للتجولين. ويدعو للتاجر داعماً الحريف إلى مشاركته الطعام، وقد يلج في الدعوة. ويحتفظ في دكانه بقلة كبيرة بما لاها عند الأوزم سقاء متجول، ويعود للتاجر إلى منزله مساء العشاء، وسرعان ما ينام...

والمادة أن ينام الرجل هو وزوجه في سرير واحد، إلا أن أفراد الطبقة الوسرة يتخذون غالباً سريراً منفصلاً. ويتكون السرير عند متوسطي الحال مما يأتي: حشيرة<sup>(٢)</sup> طولها حوالي ست أقدام، وعرضها ثلاث أقدام أو أربع، توضع على سرير منخفض من جريد النخيل، ومخدة ليحتريخ عليها الرأس، وملاء تفرش فوق الحشيرة والمخدة. وغطاء للصيف خفيف،

ويسمى (حراما)، أما غطاء الشتاء فنظيف عموماً يلقطن ويسمى (حلافا). وقد توضع الحشيرة على الأرض إذا لم يوجد سرير، أو توضع اثنتان معاً واحدة فوق الأخرى. وكثيراً ما يكتنفها مستندان من مساند الديوان؛ والكلمة<sup>(٣)</sup> تعلق فوق السرير بأربعة خيوط تشد إلى مسامير تدق في الحائط.

ويندر أن يغير للمصرى ملابسه عند النوم. وفي الشتاء ينام بملابسه الصيفية جميعاً إلا الجبة والملابس الجوخية. أما في الصيف فينامون عزاة أو شبه عمرة. وينصب السرير شتاء في غرفة صغيرة تسمى (خزنة) وصيفاً في غرفة واسعة. ويطوى فرش السرير نهاراً ويوضع على جانب، أو في الخزنة للحايق ذكرها. وعند اشتداد الحر ينام أغلب الناس على أسطح المنازل

أو في (القمحة): وهي غرفة لا سقف لها؛ ولكن ترمضهم للدواء للطلق أثناء الليل بسبب لحم الرمد وأمراضاً أخرى. وأكثر أنواع الأسرة شيوعاً ما يصنع من جريد النخل، وهو يجلب للبق القوي بكثر كثيرة فاحشة في مصر أثناء الصيف مثل كثرة البراغيث في الشتاء، وقد سبق ذكر هذه الحشرات والبهايا الأخرى التي تضررها لها المصريون ليلاً ونهاراً<sup>(٤)</sup>. والقمل

أكثر هذه الحشرات إثمارة للاشمزاز؛ ولكن القوي يغير ملابسه الداخلية كل يومين أو ثلاثة أيام قلماً تضايقه هذه الحشرة، وإن لم يكن تجنبها سهلاً دائماً حتى مع النظافة التامة. وإذا كان القمل يضايق فإن من السهل التخلص منه، لأنه لا يلبس بالجلد وإنما يوجد على العموم في الثياب. ومن الممكن أن ينظف المنزل من البراغيث بكثره للنسل والكنس، وأن يمنع الثياب

من الدخول بوضع الشباك على الأبواب والنوافذ، وإن كانت حلقاتها واسعة، ولكن من المستحيل أن يظهر المنزل المصري من البق إذا كان أناته من الخشب كما هو الحال غالباً

وحياة الخدم المذكور كلها دعة وراحة ما خلا للعائس التي يجب عليه أن يرافق سيده وقت الركوب فيجري أمامه أو بجانبه

(١) «الناموسية»: وهي تصنع من اللوصلي أو الكتان أو الكريب وهي عبارة من مظلة يطول السرير ومرصه

(٢) في مقدمة الكتاب

(٣) «الناموسية»: وهي تصنع من اللوصلي أو الكتان أو الكريب

(٤) وهي عبارة من مظلة يطول السرير ومرصه

(١) سأصفت الحوائث وأخبار التجار في فصل الصناعة

(٢) طرامة

الكلام من الحريم . ولكن يجب أولاً أن أذكر بعض الشيء  
عن الزواج وحفلاته .

يعتبر المصريون امتناع الرجل عن الزواج بلا مبرر عند بلوغ  
السن الملائمة مخالفاً للآداب ومسيئاً للجمعة . وقد تقيت أنا نفسي  
لارتكاب هذه الخطيئة ( أقول ذلك حتى لا أذكر ما هو أشد  
قسوة ) ، مضايقات ومكاره كثيرة ، واحتملت عناباً شديداً أثناء  
زيارتي الأوليين لمصر . فقد بدا لي في المرة الأولى أن أنتقل من  
المزمل القدي سكنته بعض شهور في شارع كبير من شوارع  
القاهرة إلى منزل آخر في حي مجاور ، وكسبت عقد الإيجار  
ودفعت للعربون ، ولكن جاني وكيل المالك بعد يومين يخبرني  
أن سكان الحي وأكثرهم أشرف يمترضون على سكني بينهم  
لأنني أعزب ؛ ولكنهم يقولونني بكل مرور إذا اقتنيت على الأقل  
جارية تنقني عن عار المزوبة . فأجبتني أنني لا أتوي الإقامة بمصر  
فلا أحب أن اتخذني زوجة أو جارية قد يضطرني الرحيل إلى تركها .  
فأعاد إليّ للمربون . وساعدني الحظ في حي آخر فلم يمترض على  
عزوبي أحد ، وإنما طلب مني الوعد بعدم السماح لأي شخص بلبس  
القبعة أن يزورني في الحي . ولكن بعد أن استقر بي المقام أخذ  
شيخ الحي يحاول إقناعي بوجوب الزواج . ولم يقد وزناً لكل  
ما أبدتته من الحجج التي تمنعني عن الزواج وقال : « تذكر لي  
أنك تريد ترك مصر بعد سنة أو سنتين . وأن هنا أرملة شابة  
جميلة تسكن على مقربة منك ، ويسرها أن تسبح زوجتك  
مع رضاها بأن تطلقها حينما تترك البلاد . وفي وصك طبعا  
أن تفعل ذلك إذا لم تعجبك . » وقد استطاعت هذه الشابة  
صراخاً أن تجليني أبصر وجهها الجميل أثناء سروري بالمنزل  
الذي تسكنه مع أهلها . فقلت لصاحبي إنني رأيت وجهها بطريق  
الصدفة ، وإنها آخر امرأة أرغب في الزواج منها في مثل هذه  
الظروف لتأكدي من أنني لا أستطيع طلاقها أو فراقها إذا عشت  
معهما . وقد شق عليّ أن أسكت صديق الخدم . فقد ذكرت في  
المقدمة أن الأعزب أو من لا يقتنى جارية يضطر إلى السكنى  
في الوكالة إلا إذا كان يعيش مع أهله ، ولكن للفرج الآن  
يُمنون من هذا القيد .

وتبلغ المصريات في سن مبكرة قبل نساء البلدان الباردة .  
وكثيراً ما يتزوجن في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة . وقد  
ينضجن قبل السن بشكل يستعجن الاعتبار ويتزوجن في

وقد يقوم بعمه هذا في أشد الأوقات حراً ولدة ساعات طويلة  
دون أن يبدو عليه التعب . ولكل ترى من آراء القاهرة تقريباً  
باب يلزم باب للنزل ، وعدة خدم ذكور آخرين . وأغلب  
هؤلاء مصريون . ويستخدم أيضاً للتوبيون في القاهرة وفي غيرها  
من مدن مصر . وكثيراً ما يقوم للتوبيون بحراسة الأبواب ؛ وهم  
على العموم أكثر أمانة من الخدم المصريين . وأجرة الخادم ناهية  
لا تتعدى ريالاً أو ريالين في الشهر ، إلا أنه يتناول متعاً كثيرة<sup>(١)</sup>  
فيعطى السيد كل خادم في عيد الفطر بعض الملابس الجديدة  
أو خبطة كاملة من عري وطربوش وحمالة . وعلى الخادم أن  
يدبر لنفسه ملابس السنوية الأخرى ما عدا الحذاء أحياناً . وقد  
يتناول ، علاوة على ما يعطيه السيد ، بعض النقود من الضيوف  
أو من للتجار الذين ياملهم السيد وعلى الأخص عند ما يشتري  
صفقة كبيرة . وينام الخدم بملابس النهار على الحصر ، وينظون  
أنفسهم شتاءً بدثار<sup>(٢)</sup> أو حرام . وكثيراً ما يرفع الخادم للكفة  
مع سبده فيضحك وعزج معه . وفي بعض الأحوال الأخرى  
يخضع كل الخاضوع ويظهر له كل الاحترام ، ويتقبل كل ما يوقمه  
عليه من العقوبة البدنية بهدوء الأبطال .

ويراهي السيد الخادم المبدأ أكثر من الخادم الحر ؛ ويحمي  
المبدأ حياة توافق طبيئته للكسولة . ويمكنه إذا كان غير راض  
من عمله أن يجبر سيده على بيمة . وأغلب عبيد مصر يلبسون  
لللباس العسكرية التركية . وهم على العموم أشد الناس تعصباً  
في مصر وأكثر تموداً على إهانة المسيحيين وكل من كان على  
غير دينهم القدي اعتقوه دون أن يعرفوا من مبادئه أكثر  
من يعرف أطفال العرب الذين لم يعض عليهم في المدارس أكثر  
من أسبوع . وسأذكر بعض أخبار الجوارى في الفصل القادم  
ومعرفة أحوال المصريين المحدثين كثيراً ما تجرنا إلى مقارنة  
عادتهم المنزلية بمادات الأوربيين في القرون الوسطى ؛ وما في  
هذه المقارنة من مشابهاً ، تستبرأ أكثر تأثيراً مما فيها من  
مباينات . هذا بالنسبة للرجال ؛ أما بالنسبة للنساء فالأمر على العكس  
الآن وقد أطلت الحديث عن الرجال يجب أن أنتقل إلى

(١) ويطلب الخادم من السيد الأوربي أجراً مرتصفاً . كما أنه يتناول  
منه متعاً أو فريداً وقيمة . وتلك العطايا إذا تمت بتقبل يكون لها أثر  
حسن ، ولكنها كثيراً ما تشجع على الكسل والجماع

(٢) أنظر سفر الخروج ٢٢ / ٢٦ ، ٢٧ : ( إن ارتنت نوب  
صاحبك فال غروب الشمس تردده له . لأنه وحده عطاءه . هو يوبه  
بلجه . في ماذا يتام .. )

الطرف الآخر طهماً القصد من الزيارة . ولكن إذا وجدن بين نساء المنزل ( ولا بد من رؤيتهن جميع من يصلحن للزواج ) فتاة أو امرأة شابة تتحلى بالصفات اللازمة يكشفن عن قصدن ويستفهمن ، إذا لم يكن طلب الزواج وقتئذ مستقبهاً ، مما تملك الفتاة من أملاك وحلى الخ . وقد تملك الفتاة إذا توفى أبوها منزلاً أو أكثر وحوانيت كثيرة الخ . وتملك كل بنت على وشك الزواج ، في الطبقتين العليا والوسطى ، مجموعة من الحلى الذهبية والجواهر في جميع الأحوال تقريباً . وبعد أن يستلم الزائرات عن هذا وغيره يقدمن تقريرهن إلى الراغب في الزواج . فإذا رضى بذلك للبيان يقدم إلى الخاطبة هدية ويرسلها ثانية إلى عائلة الفتاة لتعرفن رغباته . وتبالغ الخاطبة على العموم في حديثها عن صفات الرجل الجذابة وثروته الخ ، فتحدث مثلاً عن شاب حامل تلم هي أنه لا يكاد يملك شيئاً ولا يمتاز بشيء بقولها : « يا ابنتي ، إن الشاب الذي يرغب في الزواج منك صغير السن لطيف المشرة أتيق أحمده ترى جميل اللبس منرم باللطائف ؛ إلا أنه لا يستطیع أن يتمتع بهذا الترف وحده فهو يريد أن تكوني شريكته . وسيضي وقته كله كل ما يشتري بالمال ؛ وهو لا يخرج كثيراً ؛ وسيضي وقته كله إلى جانبك يلاطفك وبذلك » .

هدية طاهر نور

العاشرة (١) . إلا أن هذا الزواج المبكر غير شائع . ولما بقين بدون زواج بعد السادسة عشرة . وقد تصبح الفتاة المصرة أما في الثالثة عشرة أو قبل ذلك . ونساء مصر على العموم ولودات ، ولكن الأجنبية اللاتي توطن مصر عقيمت غالباً . ويندر أن يعيش من يولد في مصر من أولاد الأجنبي إلى سن الكهولة ولو كانت الأم مصرية . ولهذا يرجع السبب في تبني المهايك المعقنين غيرهم من المهايك

ومن الشائع بين العرب في مصر وغيرها أن يتزوج الرجل من ابنة لعم أو الخال . ويستمررون بعد الزواج على التنادى بألقاب القرابة . لأن رابطة الدم لا تفصم ، ولكن صلة الزوجية عرضة للزوال . ومثل هذا الزواج يدوم على العموم بسبب رابطة القرابة ، وقد تربطهما وحدة البيئة في طفولتهما ، ولكن قلما يسمح للفتى أن يرى وجه قريبته في الطبقتين العليا والوسطى ، أو يقابلها أو يتحدثها حين تقرب من سن البلوغ إلى أن تصبح زوجته

ويتم زواج المندراء في القاهرة بالطريقة الآتية ، إلا إذا كانت أرملة أو مطلقة فيكون الحفل صغيراً . تبدأ أم الراغب في الزواج أو إحدى قريباته بوصف الفتاة التي تكون عرستها وذكر

أحوالها ، وترشده في اختياره (٢) . وقد يستخدم خاطبة وهي امرأة عملها أن تساعد الرجال في الزواج . وقد يستخدم أكثر من خاطبة . وتقدم الخاطبة بيانها عن الفتيات مسارة ، فتصف الواحدة أنها كالنزال جلالاً ورشاقة وصغيرة السن ، والأخرى أنها ليست جميلة ولكنها غنية ، وهكذا . والمادة أن تذهب أم الخاطب وبمضى قريبته مع خاطبة لزيارة عدة بيوت . وللخاطبة حق الدخول لاجترافها مسرة الزواج ، إذ أن النساء كالرجال يستخدمنها أيضاً . وقد تقوم الخاطبة بمهمة (الدلالة) أيضاً بتبوع الحلى والملابس الخ ، فيسهل عليها دخول البيوت تقريباً . وتقدم النساء اللاتي يراقفن الخاطبة ، للبحث عن زوجة لقربهن ، باعتبارهن زائرات فقط ، وقد لا يلتهن طويلاً إذا لم يصادفن مرادهن ، ويقفهن

(١) وكثيراً ما يخطن قبل ذلك بستين أو أكثر

(٢) وكان إرسال إبراهيم رسولاً إلى بلده ليبحث عن امرأة لاسحق ابنة (أنظر سفر التكوين ٢٤) يعتبر تماماً عين الوسيلة التي قد يتبعها العرب المحدثون في مثل هذه الظروف لو تيسر الأمر لهم .

